

مجلة العلوم القانونية والشرعية الصادرة عن جامعة الزاوية
العدد العاشر/ يوليو 2017م

بحث بعنوان:

الانتفاضات الشعبية في ليبيا ضد الحكم العثماني

د /المبروك محمد موسى علي
كلية الاداب /جامعة الزاوية

بسم الله الرحمن الرحيم

بحث بعنوان

الانتفاضات الشعبية في ليبيا ضد الحكم العثماني

التمهيد:

إشكالية البحث: تساؤلات تتعلق بكيفية قيام الانتفاضات وأسبابها, وتطوراتها, وانتشارها في مختلف مناطق من البلاد, وزعامتها, ونتائجها.

اقتناعي بأهمية الموضوع الذي يشكل جانباً من التاريخ النضالي للشعب الليبي,, وأن يكون حاف للآخرين لدراستها من جوانب أخرى, وتعال مع غيرها من الانتفاضات الشعبية التي قامت في الوطن العربي ضد الوجود العثماني, اهتمام الباحثين, والدارسين بما يسלט المزيد من الأضواء على المجهول من تاريخ البلاد النضالي, في سبيل استرجاع حقوقه, و الاحتفاظ بكرامته, وتعتبر من أهم الانتفاضات التي شهدتها إيالة طرابلس الغرب خلال الحكم العثماني وأخطارها, فقد كانت شعبية عارمة شملت مناطق كبيرة من الايالة ضمت بعض القبائل الكبيرة ذات القوة , والنفوذ, وأتسع تأثيرها في منطقة جغرافية واسعة شملت, والتي استمرت فترات زمنية طويلة, فشكلت بذلك خطورة كبيرة هددت الوجود العثماني في البلاد, وألحقت بجيشه الهزائم في عدة مواقع, واستنزفت إمكانياته الاقتصادية, وسببت له الأزمات السياسية التي أدت إلي سقوط الولاية , وتغير القيادات العسكرية, والتي كان لها تأثيراً على الأوضاع القبلية, ومراكز نفوذها في الداخل, كما استرعت على الصعيد الخارجي انتباه الحكومات الانجليزية والفرنسية فأسرعت بالتدخل ولو بصورة غير مباشرة في الصراع الدائر بينهما.,

, ففي مطلع القرن السادس عشر, حققت الدولة العثمانية انتصارات كبرى, واحتلت مناطق كثيرة في أوروبا والمشرق العربي تحولت إلي دولة كبيرة في الشرق فبعد القضاء على دولة المماليك في الشام عام 1516 م ومصر 1517 م , وغرب الجزيرة العربية, و استلامهم مفاتيح الحرم من الخليفة المملوكي في القاهرة , وصارت ينظر إليها كقوة عسكرية إسلامية مدعوة

لخوض الجهاد المقدس ضد الكفار، وحاولت هذه الدولة ، أن تسير في حكم البلاد العربية التي خضعت لنفوذها، بأسلوب يتناسب وطبيعة هذه البلاد وعاداتها وتقاليدها أهلها ، ونظم الحكم التي كانت سائدة فيها من قبل ، وفي نفس الوقت تتناسب وفلسفة الحكم العثماني ذاته ، وفي إطار تحقيق هذا الهدف وضع العثمانيون تقسيماً إدارياً للبلاد العربية التي خضعت لسيادتهم عرف بنظام الإيالات، أو الباشويات، أو الولايات ، فقد قسمت البلاد العربية إلى قسمين، هما المشرق العربي والمغرب العربي، الذي تكونت فيه ثلاث ولايات هي طرابلس والجزائر وتونس ، وقد كانت كل ولاية تقسم بدورها إلى عدد من الوحدات الإدارية والمالية مثل القضاء والناحية⁵ وفي 1551 م ، استولى العثمانيون على طرابلس، وكان سكانها قد خاضوا، على طوال أربعين سنة صراعاً ضد الغزاة الأسبان الذين احتلوا طرابلس سنة 1510 م ثم ضد فرسان مالطا الذين سلمهم الأسبان المدينة سنة 1530 م، وقد استفادت هذه الدولة من نتائج الصراع الذي امتد سنوات طويلة ، لكي تغطي الدولة العثمانية على أطماعها التوسعية أصرت على إظهارها في مظهر محرراً للشعوب الإسلامية من الضيم الأجنبي، غيران السياسة التي أتبعها العديد من الدايات والمتمثلة في فرض الميري (الضرائب) ودفعها بالقوة على جميع المحاصيل من الأهالي، إلى جانب أعمال السلب والنهب والقتل والتشريد كان لها رد فعل لدى الأهالي مما أدى، إلى قيام العديد من الانتفاضات ضد الوجود العثماني في البلاد من أجل التخلص من هذا الوضع، وإن هذه السياسة خلفت سخطاً عارماً على الدايات الأمر الذي أدى إلى رفض الوجود العثماني، وعلى الرغم من الجهود التي بذلها بعض الدايات للتقرب إلى بعض الزعامات القبلية، فإن الأوضاع عند الأهالي كانت أكثر خطراً، الأمر الذي دعاهم إلى القيام بثورات في مختلف القبائل، والتي استمرت طيلة الحكم العثماني في هذه البلاد ، ونذكر البعض منها.

أ - في سنة 1587 م قام الانكشارية بمذبحة الحجاج المتجهين إلى مكة المكرمة فثار عليهم أهالي الساحل في تاجورا بقيادة الشيخ يحيى بن يحيى ، وأتسع نطاق الثورة عبر سكان المناطق الجبلية في جبل نفوسة وبنغازي ودرنة عن تأييدهم لثورة أهالي تاجورا⁶

ب - خلال عهد محمد باشا الساقللي، سنة 1633 م / 1649 م ثار الزعيم القبلي جابر بن موسى في تاورغا الأمر الذي دفع بالسلطات العثمانية إلى إعداد حملة عسكرية والالتقاء به في مشارف تاورغا التي هزمت في بداية المعركة غير أنها استطاعت القضاء عليه بعد وقوع زعيمها في الأسر ومقتله، رجعت تاورغا تحت سيطرة الدولة⁷

ج - بعد ثلاثة سنوات من تولي صفر داي الحكم في إيالة طرابلس الغرب ، ففي عام 1656 م قامت ثورة في تاجورا بزعامة عويس ضد الدايات صفر، وقدمت قبيلة الرقيعات الدعم لهذه الثورة ، وقامت بمهاجمة مدينة طرابلس عاصمة الإيالة، وخلال فترة حكم الدايات صفر تعرض للمصاعب الكبيرة⁸

في إقليم فزان، في سنة 1694 م حيث استفادا الناصر بن محمد شيخ فزان من ضعف الإدارة العثمانية ورفض دفع الإتاوة السنوية إلى خزينة الإيالة ، في الوقت الذي كان العثمانيون يتطلعون بدورهم إلى تدعيم مواقعهم في ذلك الإقليم الذي تمر من خلاله تجارة القوافل من منطقة أفريقيا الوسطى إلى موانئ البحر المتوسط⁹

د - في سنة م 1639 قام أحمد بن عبد الهادي أمير واحة أوجلة التي تقع إلى الجنوب الشرقي من مدينة بنغازي, والتي شكلت خطراً على طرق تجارة القوافل

وقد كانت هذه الواحة نقطة عبور لها غير إنه لم يتمكن من مواجهته , وبدأ الزحف العثماني بالتوغل في الواحات التي تقع في الجنوب الشرقي من البلاد¹⁰ كما انتفض أهالي برقة في مدينتي بنغازي ودرنة ضد الظلم العثماني لهما مستفيدين من ضعف حاكم الإيالة في طرابلس الغرب , وصراعه الفاشل مع جيرانه في الإيالة التونسية¹¹

ه - وقام منصور بن خليفة في عام 1687 م الذي كابد ظلم الإنكشارية الأمر الذي دفع بالداي محمد الإمام إلى إرسال حملة عسكرية لمواجهته فأثار أهالي ترهونة الذين كانوا ساخطين بسبب مضايقات الإنكشارية في الحاميات المحلية , ولما علم بوصول قوات كثيرة قادمة من طرابلس, إلى تاورغا, فرّ ومعه العديد من الأهالي الذين انضموا إليه حيث التقى الطرفان بالقرب من تاورغا, وفي بدئ المعركة انتصر زعيم الثوار, غير أنه تحت ضغط الأهالي تلك المنطقة اتجه نحو سرت, و أوغل نحو حدود برقة¹²

و - ففي سنة 1694م, لم تكن الأمور هادئة في فزان, حيث رفض الناصر بن محمد, دفع المبالغ المقرر دفعها إلي حكومة الولاية في طرابلس الغرب , فتوجهت له قوة كبير بقيادة يوسف بك, و دارت بينهم معركة بالقرب من مرزق غير أن قائد الحملة العثمانية, على فزان أستطاع أن يشق صفوف الثوار, ونتيجة لذلك وقع شيخ فزان الناصر بن محمد في الأسر, وبعد مضي خمسة أشهر عاد أهالي فزان إلى الثورة من جديد, وقاموا بطرد ممثل طرابلس , وتكليف تميم بن جمعة شيخاً لفزان¹³

ر - بينما في سنة 1699 م قام عبد الله بن عبد النبي الصنهاجي, بثورة في منطقة تاورغا , وجمع الساخطين من أهالي المنطقة, وأنضم إليهم أولاد سليمان, وصار يغير على قرى منطقة مصراتة, وزليطن, للنهب والسلب , وخرجت له قوة من طرابلس يقودها خليل بك , حيث بددها ودمرها في سنة 1700 م¹⁴, وقد أدت هذه الانتفاضات التي قامت في مناطق مختلفة من الإيالة رفضاً للحكم العثماني ساعدت في مجملها إلى انهيار الأوضاع الاقتصادية في البلاد وهجرة الكثير من الأهالي العديد من المناطق¹⁵

7 : وفي سنة 1703 م خرجت قبيلة المحاميد, على طاعة الدولة في عهد الداوي خليل بيك, وذلك بسبب انتقاص من امتيازاتها, وتضامن مع هذه القبيلة أهالي غريان, حيث توجهت لهم قوة عسكرية كبيرة لضربهم مكونة من ثلاثة آلاف عسكري من الإنكشارية, وحوالي خمس مائه من قوة الفرسان, وستة آلاف من المتطوعين العرب من القبائل المعادية للمحاميد, ودارت المعارك بوادي الأرباع بالقرب من غريان, وفي الوقت نفسه قام بعض المسلحين من المحاميد بشن غارات على المناطق المأهولة بالسكان القريبة من طرابلس, الأمر الذي كلف حكومة الإيالة مجهوداً كبيراً للقضاء على هذا التمرد¹⁶ وفي سنة 1711 م هبت عاصفة التغيير و الأحداث القوية على إيالة طرابلس الغرب, تمكن أحد القادة العسكريين العثمانيين الدين استقرت أسرتهم البلاد, وهو أحمد باشا القرمانلي¹⁷ من الاستيلاء على السلطة , فأنتهى السيطرة العثمانية المباشرة التي دامت مائة وستين عاماً من 1551 إلى 1711, و وضع حداً لذلك العهد الطويل من

الفوضى السياسية والإدارية التي عمت البلاد, من التهديد والسلب والنهب من طرف الانكشارية وعدم الاستقرار, وقيام الثورات الداخلية التي عمت الايالة في أوقات مختلفة, حيث كان موقف الحكومة المركزية هو الاعتراف بالأمر الواقع, وهو الاعتراف بشرعية حكم أحمد باشا القرماني على طرابلس في عام 1714 م, وأن يكون الحكم وراثيا في أسرته¹⁸

قد قسمت الايالة إلى ثلاثة الألوية هي طرابلس ومصراتة وبنغازي, وكانت الألوية تقسم إلى أقضية, ولا قضية إلى نواحي تحكم بواسطة جهاز إداري محلي لتطويع الأهالي, حيث يتم إرسال قوات من طرابلس إلى المناطق التي تحتاج إلى المساعدة في تحقيق ذلك, وكانت السمة البارزة لحكم عائلة القرمانلي هو الصراع الدموي بين أفرادها, والتكالب على السلطة, وقد ترك هذا الصراع أثاره السلبية إذ عمت البلاد الكثير من الانتفاضات, التي كانت في مجملها تهدف إلى التخلص من حكم العائلة القرمانية¹⁹, والتي سنت القوانين الصارمة التي ألحقت بالأهالي أضرارا كبيرة بما سنته من ضرائب استثنائية على الزراعة والتجارة اللتين كانتا تشكلان اقتصاديات الايالة, وكان لذلك انعكاسه السيئ إذ أدى إلى نزوح الكثير من الأهالي البلاد²⁰ ونتيجة للظروف السيئة التي أصبحت عليها الايالة اندلعت العديد من الانتفاضات الشعبية في مناطق كثيرة من البلاد, حيث انتفضت قبيلة أولاد سليمان سنة 1806م بزعامة الشيخ عبد الجليل غيث سيف النصر, الذي انتهز والده فرصة اضطراب أحوال البلاد بسبب تجدد الصراع بين الوالي يوسف باشا القرماني, والدويلات الايطالية التي حاولت الحصول على بعض الامتيازات مثل الحكومة الأمريكية فأعلن الشيخ غيث الخروج عن طاعة الحكومة في طرابلس, واجبر السفن الأوربية القادمة إلى ميناء سرت على دفع الرسوم والضرائب إليه بدلا من دفعها إلى خزينة الايالة²¹ وعليه أرسل يوسف باشا قوة عسكرية بقيادة ابنه محمد إلى سرت للقضاء على الثورة والقبض على زعمائها, وتمكن من قتل الرأس المدبر لها الشيخ غيث, وأسر ابنه عبد الجليل صغير السن, وأمر بنقله إلى طرابلس ليعيش في وسط العائلة الحاكمة حتى يبلغ رشده, وساعدته تلك الظروف على معرفة سياسة هذه العائلة, أسرار حياتها²², وسنة 1826 م قامت الثورة في إقليم برنو, و طلب حاكمها المساعدة من يوسف باشا القرماني, الذي أرسل حملة لنجدة صديقه بقيادة عبد الجليل غيث سيف النصر, الذي استطاع الوصول إلى الحدث, والقضاء على حركة التمرد في الإقليم, غير أن هذه الثورة أعادت إلى ذاكرته الحملة التي ذهب والده ضحيته عام 1806 م, وبعد وصوله إلى مدينة طرابلس أخذ يفكر للثورة ضد يوسف باشا القرماني أخذا لثأر والده²³, وفي عام 1830 أعلن عبد الجليل سيف النصر الخروج عن طاعة يوسف باشا في منطقة بني وليد التي تقع إلى الجنوب الغربي لسرت, وانضمت لها القبائل المجاورة, وامتد زحفها إلى سرت و فزان, نتيجة المتاعب السياسية والاقتصادية التي مرت بالبلاد تلك السنة, وبذلك حاول الباشا دعوة عبد الجليل للتفاوض معه ومعرفة مطالبه فقرر عبد الجليل أن يبعث بمندوب عنه لمقابلة الوالي, ومناقشة المواضيع التي تهم الطرفين, فأعتبر يوسف باشا ذلك تحديا له, أمر بقتل مندوب عبد الجليل, فجاء رد عبد الجليل سريعا, بإرسال قوة لاحتلال إقليم فزان, ولما تأزم الموقف بينهما عرض القنصل البريطاني في طرابلس التدخل لإنهاء الأزمة فرفض الوالي ذلك الطلب, و أمر بإعداد حملتين بقيادة ولديه بالتوجه إلى منطقة بني وليد مركز قيادة عبد الجليل, حيث وقعت المعارك بينهم و استطاعت قوات الباشا التغلب على الثوار وإجبارهم على ترك بعض مواقعهم, غير أن تدخل القبائل المرابطين المواليين

للباشا من أولاد أبو سيف, وأولاد أبو مريم, وتعهد عبد الجليل بن غيث بإجلاء إقليم فزان²⁴, غير أن عبد الجليل زاد إصراراً على عدم تركه فزان, أعد يوسف باشا حملة عسكرية تحت قيادة محمد المكني لوضع حدا لثورة عبد الجليل, واسترجاع إقليم فزان إلى تبعيته بالايالة المباشرة, وعند وصول المكني إلى إقليم فزان, تعرض لمقاومة قوية من أنصار عبد الجليل, لذ أرسل إلى طرابلس يطلب إمداده بالعساكر والعتاد الحربي, أبلغ بان يوسف باشا قد تنازل عن الحكم إلي ابنه علي باشا, وأنه أقر عبد الجليل حاكماً على إقليم فزان, وبهذا الاعتراف انتهت مؤقتاً مشكلة فزان, أصبح عبد الجليل يمارس نشاطه كحاكم لفزان²⁵, والذي يمكن قوله بأن اعتراف علي باشا القرمانلي بعبد الجليل غيث كحاكم على إقليم فزان هي بسبب إعلان الثورة في مركز الولاية بالساحل و المشية بقيادة ابن أخيه محمد باشا²⁶ و في عام 1810 م, قرر أهالي قضاء نالوت التابع للجبل الغربي, الخروج عن طاعة الشيخ بالقاسم بن خليفة شيخ الجبل, ورفضت دفع قيمة الضرائب المفروضة عليهم لخزينة الولاية, فحاول شيخ الجبل إقناع الأهالي بدفع المبالغ المقررة عليهم, والاعتراف بسلطة الولاية عليهم, واستغل يوسف باشا الفرصة فسارع بإرسال حملة إلى نالوت بقيادة ولدي أحمد, وعلي, ودارت معركة ضارية بالقرب من نالوت, وانتهت المعركة بالتفاوض, وإجبارهم على دفع الضرائب المفروضة, وتسليم العبيد الدين كانوا عندهم كمصاريف حربية²⁷, وقد عززت هذه الثورة رغبة يوسف القرمانلي في ضم هذه المنطقة إلى إشرافه المباشر, ورغبته في الحصول على أكبر كمية من الضرائب من السكان²⁸ غير أنه لم يتمكن من تحطيم الروح الاستقلالية, التي عمت أرجاء الولاية طيلة المرحلة السابقة, ضد سياسة الإدارة العثمانية التي تركت أساساً على إغراق الأهالي بأعباء الضرائب, وإتباع سياسة التعسف والجور, الذي كان سبب في الثورات التي عمت البلاد طيلة الفترة السابقة التي كان لها الأثر المباشر في زوال حكم الأسرة القرمانلية, وكانت فرصة سانحة للحكومة المركزية للسيطرة على طرابلس الغرب من جديد وجعلها تابعة للحكم العثماني المباشر ففي يوم 26 محرم 1251 هـ الموافق 24 مايو 1835 م تمكن مصطفى نجيب باشا من السيطرة على الحكم في إيالة طرابلس الغرب المباشر²⁹, غير أن فترة الوالي لم تدم طويلاً بطرابلس الغرب لسخط الأهالي عليه, كما أن الحكومة العثمانية رأت في وجوده بهذه الولاية خطر يهدد بالانفصال من جديد, و بعد أن سك عملة نقدية محلية باسمه, ومن بين الأخطاء التي ارتكبتها سلطة الولاية هي اعتقال الشيخ غومة بن خليفة المحمودي, الذي قدم إلى مدينة طرابلس في يوليو 1835 م, ومعه عدداً من أعيان قبائل الجبل مهناً بعودة طرابلس إلى سلطة الدولة المباشرة, وبقدوم الباشا الجديد, وهي عادة متبعة عند قبيلة المحاميد يقدمون التهاني إلي كل واليا جديداً, وحضر الوالي مصطفى نجيب مراسم الاحتفال, وقدم الهدايا إلى مشايخ المحاميد برنساً مطعماً بالفضة³⁰, وعلى الرغم من تقديم الهدايا إلى الوفد غير أنه غدر بالشيخ غومة ووضع في السجن وألغيت مراسم الاحتفال بدون ذكر الأسباب, الفعل الذي استنكره جميع الأهالي في الولاية من تصرف الباشا غير المقبول في حق الشيخ غومة المحمودي, وطلبوا منه إخلاء سبيله, ولكن الباشا رفض الطلب, و أصرَ على إبقائه في السجن, و ما أن وصلت المعلومات إلى السلطان محمود الثاني تفيد باعتقال الشيخ غومة المحمودي, و أثره على حالة الاستقرار الأمني في البلاد, وامتناع أعيان الدواخل, وشيوخها من التعاون مع مصطفى نجيب, واستياء الحكومة الفرنسية من الإطاحة بالأسرة القرمانلية³¹ مما جعله يقوم بإعفاء مصطفى نجيب من مهامه³², بغرض التخفيف من حدة توتر الوضع, وفي شهر سبتمبر

1385 ثم تكليف الوالي محمد رائف باشا الذي أطلق سراح الشيخ غومة المحمودي أملا منه في الاستعانة به لبسط نفوذه على المناطق الداخلية في الإيالة، في الوقت الذي كانوا الأهالي يعتقدون أمالا كبيرة عليه في الاحتماء به من بطش الدولة، وقد حقق الشيخ غومة أمل الأهالي فيه ، عندما ثار أهالي غريان على الوالي محمد رائف باشا ، واستنجدوا بالشيخ غومة فهب لنجدهم ومعه بعض فرسان أهل الجبل الغربي ، وبمساعدهم تمكنوا ثوار غريان من تحقيق النصر على القوات التي يقودها طاهر باشا، والاستيلاء على الكثير من العتاد الحربي والمؤن ، و إجبار القوات الحكومية إلى الانسحاب إلى مدينة طرابلس³³ ، وعند وصوله إلى طرابلس وجد أمامه فرمان بتعيينه دايأ على طرابلس خلفا لمحمد رائف باشا³⁴ ، ويذكر محمد بهيج بان الوالي طاهر باشا قد خاض ثمانيا وعشرين معركة ضد أهالي الجبل بقيادة الشيخ غومة³⁵ ، غير أنه ثم الاتفاق على الصلح بين الوالي والثوار على أن يتول الشيخ غومة المحمودي وظيفة مدير غريان، مقابل تسليم المدافع الذي وقعت في أيدي الثوار إلى الحكومة³⁶

ففي يوم 25 مايو عام 1837 وصل الداى الجديد حسن باشا الجشملي إلى طرابلس الذي عمل على المصالحة مع الثوار³⁶ حيث كانت فترة حكمه تمتاز بالهدوء في جميع أرجاء الإيالة

ولكن الحكومة العثمانية قامت بنقل الوالي حسن باشا ، وكلفت بدلاً منه علي عشقر باشا 1838 / 1842 م الذي عرّف بقسوته لرجال حركة المقاومة، وعلى الرغم من قيامه بعقد المصالحة مع الثوار في غريان في شهر نوفمبر 1838 م على أن يلتزم الأهالي بدفع مبلغ مالي وقدره ثمانية وعشرين الف قرش عن منطقة غريان و ترهونة و ورفلة و سرت و فزان و سهل الجفارة³⁷

أذم مقتل عبد الجليل غيث سيف النصر إلى حصر الثورة في الجبل الغربي الأمر الذي دفع بالشيخ غومة المحمودي بالقدوم ، ومعه أعيان، ومشايخ الجبل إلى طرابلس يوم 10 رجب الموافق 17 أغسطس 1842 م ، وعقدوا صلحا مع الوالي علي باشا عشقر، الذي كان منشغلا بإحداث ثورة سيف النصر والقضاء عليها في 1842 م و لكنه عاد في نهاية العام ليركز هجومه على قري الجبل غير أن ولايته انتهت قبل أن يحقق أهدافه، بتولي أمور الإيالة الوالي محمد باشا أمين³⁸ في شهر يوليو الذي قام بإصلاحات إدارية وفرض الأمن في البلاد غير أنه كان عاجزاً عن تهدئة الثوار الذين يدافعون عن استقلالهم³⁹ ، وفي نفس الوقت وصل زعيم ثوار الجبل الغربي إلى طرابلس ، ومعه أنصاره حيث استقبل بكل الحفاوة والتقدير ومنح لقب البكوية⁴⁰ ، غير أن هذا الأمر أنقلب رأسا على عقب، حيث تم استدعاء الشيخ غومة والمقربين منه ، والقي عليهم القبض ، وإرسالهم على الفور فوق سفينة ألي الاستانه ثم إلي طرابلس⁴¹ ، باعتبارها على قيامها ، وصمد أهالي الجبل أمام ضربات الجند العثماني أكثر من عام على الرغم من بشاعة الأعمال التي قاموا بها من قتل العديد من قبيلة المحاميد والسبعة المؤيدة للشيخ غومة، وسلبت أموالهم ، وسرقت مواشيهم ، حتى أصبح الفرد يخشي أن يقول أنا محمودي أو سبعي حفاظا على نفسه وماله ، ومستقبله⁴² حتى أصبح الفرد المحمودي ، أو السبعي يخشي أن يقول أنه من هاتين القبيلتين حفاظا على نفسه وماله ومستقبل أسرته ، ولم تتوقف عملية الانتقام ، إلا بعد تدخل الوالي محمد باشا ، أصدر أوامر المشددة إلى جميع الموظفين ، وكذلك المواطنين بعدم الاعتداء عن أي شخص من قبيلتي السبعة أو المحاميد⁴³ ، ولكن هذه الأوامر لم تمض

عليها فترة طويلة , حتى بدأت بوادر الثورة من جديد في الجبل نتيجة لهروب ميلود سعيد الشقروني من منفاه بطرابزون عام 1259 هـ الموافق 1843 م, و وصوله إلي تونس, ومنها إلي قبيلة الشقارنه , وأبلغ أهالي بان الشيخ غومة المحمودي في طريقه إلى البلاد , وسيدخل الجبل في المدة القريبة ⁴⁴ , واتخذ ميلود الشقروني من مدينة يفرن قاعدة لنشاطه و التي ثارت بمجرد وصوله وحوصرت قصر المجيدية بيفرن, حيث طلب القائد العسكري النجدة من طرابلس , و وعد الجند المحاصرين داخل الحامية من قبل الثوار بزيادة مرتباتهم , وطمأنهم بقرب وصول النجدة إليهم⁴⁵ , واستطاعت القوات التي أرسلها محمد أمين باشا, إلي يفرن للقضاء على الثورة , والاستيلاء على قصر المجيدية وقصر الشقارنه , ومقتل الشيخ علي بن ساسي التقرباسطي, وهروب ميلود الشقروني إلي تونس⁴⁶ , وتمتع الجبل بسنوات قليلة من الهدوء, وفي عهد الوالي مصطفى نوري باشا رفضوا أهالي فساطو السماح لموظفي الدولة القيام بعملية إحصاء أشجار الزيتون, وإمام إصرار الموظفين على أخذ الأعشار قام الأهالي بطردهم من فساطو⁴⁷ الأمر الذي دفع بالوالي إلي إرسال قوات من العاصمة لإرجاع الهدوء إلي المدينة , و إجبارهم على الخضوع إلي مطالب الدولة في دفع الضرائب المقررة عليهم, غير أن الوقت لم يكن في صالح الحكومة العثمانية لم تمضي فترة قصيرة من إنهاء ثورة فساطو حتى وصلت معلومات عن هروب الشيخ غومة المحمودى من منفاه و وصوله إلي تونس عن طريق مالطا , هو ورفاقه, واستقر بهم المقام ببلدة مطماطة بالجنوب التونسي بعد غياب دام ثلاثة عشر عاما,, كانوا في ضيفة قريتي المثاليث ونصره, فرحبت بهم هذه القبائل, امدتهم بما يحتاجون إليه من جمال وخيول⁴⁸ , واستطاع الشيخ غومة ورفاقه دخول جبل نفوسة , و بدأ في تعبئة الأهالي في الحوامد وكاباو ونالوت, على الثورة , وتأكد للشيخ غومة وقوف كل القبائل, في الجبل من الحراية والرحيبات وفساطو والرجبان و الزنتان والخلايفه معه ضد الوجود العثماني في الجبل,⁴⁹ ويقول الشيخ محمد الأزهري الجروي الزنتاني في مذكراته اليومية بان الشيخ غومة دخل الجبل بتاريخ أواخر رمضان عام 1271 الموافق يونيو 1855 م بينما وصل الزنتان يوم 7 شوال⁵⁰ , وبعد حصوله على موافقة القبائل بالهجوم على قصر المجيدية بيفرن, مركز لواء الجبل, وهو المعسكر العثماني الوحيد في الجبل, و بداخله أربع سرايا من المشاة, وسرية من الفرسان , وكمية كبيرة من الذخائر, وقتل جنديين, و وقع ضباط من كتبية الفرسان أسراً ولكن السلطات العثمانية في طرابلس أرسلت بقوة إضافية من قوة المدفعية والفرسان إلى حامية يفرن , غير أن الشيخ غومة كان لهم بالمرصاد , حيث قسم أنصاره إلى قسمين, مجموعة تبقى تحاصر معسكر يفرن , والثانية تعترض القوات القادمة من طرابلس عن طريق غريان في مكان يعرف بعين الرومية, و ثم اللقاء بينهم, وكان النصر لغومة وأنصاره , و رجعت القوات العثمانية مهزومة إلى طرابلس⁵¹ وفي محاولة من الشيخ غومة وهو في مركز القوة أن يبرهن للباشا على رغبته في الصلح, فسرح كل الأسر مع معداتهم, وأرسلهم إلى طرابلس, كما قام بمخاطبة الباشا برغبته في إنهاء القتال, استعداداً لخدمة الدولة, ولكن الرد جاء مخالفاً لما طلبه الشيخ غومة⁵² , ووجه الباشا نداء إلى رفاق الشيخ غومة في أواخر عام 1855 م, و عدهم بالعفو والأمان, في حالة تركهم للشيخ غومة , ورجوعهم إلي منازلهم, وعلى الرغم من تعهد الباشا للثوار , فان معظمهم ظلوا مع الشيخ غومة خوفاً من انتقامه , وعدم استطاعتهم الهروب , غير أن اتساع حركة الثورة التي قامت بعد عودة الشيخ غومة من منفاه انتشرت في جهات أخرى بعيده عن جبل نفوسه, حيث أنظمت إلى الثورة قبائل بن وليد والزواوية

والعجيلات و ورشفانه والعلالقه و غريان , ونادوا بالشيخ غومة قائدا , ومنقذا لهم من ظلم العثمانيين⁵³, وبوصول الوالي عثمان باشا إلي طرابلس تغيرت الخطة العسكرية العثمانية اتجاه الثورة وقائدها بإعداد قوة عسكرية من جند وعتاد بقيادة قائمقام الجبل بالتوجه إلي معسكر عين الرومية الموجود به غومة والثوار , حيث كان اللقاء بينهم في معركة نتجت عنها هزيمة الشيخ غومة , انسحب إلي فساطو, وبعد هذه المعركة حاول الوالي عثمان باشا المصالحة مع الشيخ غومة فأرسل إليه بعض أعيان البلاد , وأهداه برنسا محلي بالفضة و حصانا , وطلب من الوفد إقناعه بمغادرة البلاد إلي تونس , والتعهد بعدم الرجوع إليها أو القيام بأي نشاط يهدد أمن البلاد وسلامتها , ونتيجة للهزائم المتلاحقة التي ألحقت بالشيخ غومة فإنه لم يجد أمامه غير الاستجابة لطلب الوالي , ومغادرة الجبل , و معه سبعين نفرا من أعوانه⁵⁴ وعند وصول الشيخ غومة إلي تونس تقدم بطلب للقنصل الفرنسي لغرض التوسط لدى باي تونس محمد باشا للسماح له بالإقامة بالبلاد التونسية, و قبلت وساطة القنصل الفرنسي بشرط عدم قيام الشيخ غومة بأي نشاط سياسي فترة وجوده في تونس , غير أن الشيخ غومة شعر بالمضايقة من قبل الجيش التونسي الذي قام بمهاجمة المعسكر الذي يقيم فيه, و أجبر على الفرار لوادي سوف القريب من الحدود الجزائرية⁵⁵و بذلك استقر رأيه نهائيا على الذهاب إلي الأراضي الجزائرية , الذي أستقبل بكل الاحترام من طرف الحاكم العام الفرنسي, غير أنه لم يطيب له المقام في ديار الغربية ففي أواخر عام 1857 م, عاوده الحنين إلي الأهل والبلاد فقرر الرجوع إليها, وكانت ففكرته الاتصال بأعيان وشيوخ الجبل لمعرفة مدى استعدادهم لا إشعال الثورة من جديد في الجبل,و إن كان غير ذلك فإنه سيقوم بالسيطرة على الأراضي الواقعة بالقرب من الحدود التونسية , والسيطرة على قبيلتي درج و غدامس, والاتصال بقبيلة أولاد سليمان التي كان يتزعمها عبد الجليل غيث سيف النصر, في فزان ,و بوصول المعلومات إلي الوالي عثمان مظهر باشا من منطقة الجبل التي تفيد بوصول الشيخ غومة إلي وادي اوال إلي الجنوب الشرقي من درج , فإنه أمر اللواء مصطفى باشا قائد الجيش بالتوجه إلي مقر الشيخ غومة بوادي اوال , وقد تمكنت القوات العثمانية من الانتصار على الشيخ غومة وقتله, ويذكر الشيخ الأزهري في كناشه انه توفيا في أواسط شعبان 1274 / 56

أما مصير عائلته و من كانوا معه, من القبائل الأخرى, ثم القبض عليهم جميعا , وقد الحق بهم الانتقام الشديد, وبعث الوالي أحمد عزت باشا في رسالة إلي السلطان بأن الأهالي تلقوا خبر مقتل غومة بارتياح⁵⁷ , ولكن الواقع غير ذلك فإن وفاة الشيخ غومة عند الأهالي فإنهم خلدوه في أمثالهم , أشعارهم, وأغنياهم الشعبية.

ردود فعل الحكومة العثمانية ضد أهالي الجبل عقب انتصار الجيش العثماني على الثوار بعد مقتل زعيمهم غومة, أمر الوالي أحمد عزت باشا قائد جيشه بتدمير جميع قصور القبائل التي اشتركت في الثورة ضد الوجود العثماني لغرض تجوعهم , وتفريق جمعهم , وتجريدهم من السلاح, حيث بلغ هدم واحد وثلاثين قصرا وهي تحتوي 6450 غرفة كما ثم مصادرة 1537 بندقية, و نجا أهالي قضاء نالوت من تدمير قصوره⁵⁸ , الأمر الذي ساعد الأهالي على الهجرة عن ديارهم بالتوجه نحو الصحاري ,و إقامة مساكن لهم من الخيام, أو النزوح إلي التراب التونسي, ويصف الرحالة الألماني بارث الذي زار طرابلس سنة 1846 م بأنها تعيش في ظروف صعبة بسبب الحروب الأهلية⁵⁹ بينما يذكر أثوري روسي إن نزوح الأهالي كان

وسيلة لتأمين معيشتهم⁶⁰ غير أن الكاتب العثماني محمود ناجي يصف حالة الولاية بقوله أن الولاية فقدت الكثير من سكانها بسبب النزوح , وارتفاع عدد الوفيات إذ لم يبق فيها سوى 30 % من عدد سكانها⁶¹, والذي يمكن قوله بأن هذه النسبة غير دقيقة لأنها غير معتمدة على إحصاء رسمي من إيالة , الأمر الذي ساعد على,

التدخل الأجنبي في طرابلس الغرب

كان لموقع ولاية طرابلس الغرب , الجغرافي , امتداد ساحلها في الشمال الإفريقي المواجه للساحل الجنوبي الأوربي, المطل على البحر الأبيض المتوسط , أهمية كبرى , وخاصة الدول التي ترتبط بتعاون و صداقة مع الدولة العثمانية, حيث كانت ترسو السفن الأوربية في المواني الطرابلسية من حين إلى لآخر, أما للحماية أو لإصلاح عطب , أو لتزويد ها بما تحتاج إليه من مواد غذائية, غير إن الدول الأوربية زاد اهتمامهم بولاية طرابلس الغرب منذ وصول أحمد باشا القرماني إلى السلطة عام 1711 م , وإنهاء السيطرة المباشرة على الولاية الذي حكم البلاد حكما مستقلا عن الباب العالي , الذي استطاع أن يفرض قواته على الكثير من الدول الأوربية التي تستعمل سفنها مياه البحر المتوسط مجالا لنشاطها التجاري , , وذلك بفرض عليها دفع الضرائب والهدايا الكبيرة سنويا عليها أو للحفاظ على أمنها و سلامتها من اعتداء الأسطول الطرابلسي عليها⁶², وبذلك كان لزاما على هذه الدول تكليف ممثلين لهم في طرابلس للتواصل بينهم وبين الباشا في طرابلس للحفاظ على سفنهم ورعاياهم , حيث توافد على مدينة طرابلس الكثير من قناصل الدول الأوربية من فرنسا وانجلترا والسويد والبنديقية وتوسكانيا ونابولي وسرديا والولايات المتحدة الأمريكية⁶³ واشتداد التنافس بين القنصلين الفرنسي و الانجليزي من اجل الحصول على نفوذ سياسي في البلاد, حيث ساند القنصل الانجليزي الثوار بقياد عبد الجليل عيث سيف النصر , و وقف القنصل الفرنسي إلى جانب الوالي مع باشا القرماني, مدافعا عنه , وعن حقه في الاحتفاظ بحكمه , أصبح هذا التنافس بينهما كأنه صراع بين القنصلين على مناطق نفوذ بينهما , وكانت سنة 1830 م من السنوات الحاسمة في تاريخ الشمال الإفريقي العربي ففي هذه السنة أصبح التدخل الفرنسي واضحا بسحبها لآخر دعامة يعتمد عليها حكم العائلة القرمانية في البلاد و ذلك لقبول يوسف باشا بالمعاهدة التي فرضتها عليه الحكومة الفرنسية, وفي هذه السنة احتلت القوات الفرنسية الجزائر , غير أنها فكرت في استخدام محمد علي والي مصر لتحقيق أهدافها وهو تأديب دأي الجزائر كما أنها كانت تأمل أن تستخدم قواته لنشر نفوذها في الشمال العربي الإفريقي, وبذلك أحدثت فرنسا منذ سيطرتها على الجزائر تعمل على تكتيف وجودها السياسي على كل من تونس و طرابلس الغرب تمهيدا لاحتلالهما عسكريا , بينما زاد القنصل الفرنسي من تدخله في طرابلس بأن قام ببناء استراحة له على شاطئ تاجورا بدون موافقة الباشا , و كان يجتمع فيها بالمشايخ و زعماء البلاد الدين فصلتهم الحكومة من مناصبهم , ويحرضهم على الثورة , وذلك بناء على الرسالة التي بعث بها الوالي مصطفى نوري إلى السلطان العثماني يعلمه بما يقوم به القنصل الفرنسي من اجتماعات مع المفصولين من وظائف الدولة في طرابلس الغرب, غير إن الولاية فشلت في وضح حد لنشاطهم, وتدخلهم في شئون الولاية الداخلية , فقد استمر القناصل في نشاطهم السياسي ووضعهم لعراقيل أمام الإدارة العثمانية في طرابلس , والتدخل في شئونها الداخلية علنا إلى عام 1882 م حيث استطاع الوالي العثماني أحمد راسم باشا أن يجعل حدا لتدخل القناصل في

شئون الداخلية للبلاد , غير أنه ظهر عمل سياسي جديد في الولاية تمثل في الصراع العلني بين كل من القنصل ل الانجليزي, والقنصل الفرنسي من أجل احتلال ولاية طرابلس الغرب , وخاصة بعد احتلال فرنسا لتونس عام 1881 م, وتواجدها في أواسط أفريقيا مند عام 1878 م ثم احتلال انجلترا لمصر عام 1882 م , وبذلك أصبحت نفوذ الدولتين لاستعماريتين متاخمة لحدود ولاية طرابلس من الغرب والشرق , وفي أواخر القرن التاسع عشر ظهرت قوة جديدة في اوربا وهي ايطاليا فسعت الدول الأوربية إلي دعمها في غزو البلاد في خريف عام 1911 م نتيجة للتدخل الأجنبي في الشؤون الداخلية في طرابلس , وإشعال نار الفتنة بين الأهالي والحكومة, وساعدت على قيام الانتفاضات الشعبية و حركات التمرد والعصيان التي قام بها الأهالي الأثر المباشر في زوال حكم الأسرة القرمانلية , وكانت الفرص سانحة للباب العالي للاستحواذ على طرابلس من جديد 1835 م , وجعلها تابعة عمليا للحكم العثماني المباشر الذي قمعا للإرادة الشعبية, وإنهاء الثورات التي شهدتها ولاية طرابلس الغرب خلال النصف القرن التاسع عشر هما ثورتا عبد الجليل غيث سيف النصر والشيخ غومة المحمودي, وعلى الرغم من أنهما كانا يعلنان دائما ارتباطهما بالسلطات العثمانية , ورفض الخروج عن طاعة السلطان,, غير أنهما كانا يشكوان إليه من ظلم الولاية , ويطلبان منه العدل والإنصاف

تمتاز هذه الفترة بعدم الاستقرار الإداري, إذ تعاقب على حكمها عددا كبيرا من الولاة حكم أكثر من نصفهم مدة لأتزيد على سنة واحدة, وبذلك لا يستطيع أي منهم أن يضع خطة طويلة لتنظيم البلاد, والنهوض بها

تمتاز هذه الفترة بتدخل الدول الأوربية الكبرى قدرا كبيرا من الاهتمام إلي ايالة طرابلس الغرب , كما يتضح ذلك من تداخلات القنصلين الانجليزي و الفرنسي في ثورتي عبد الجليل غيث سيف النصر , والشيخ غومة المحمودى , إلا أن التدخل الأوربي يزداد خلال تلك الفترة , ويصل إلي قمته بنزول القوات الايطالية على ساحل البلاد عام 1911م , أصبحت الدولة العثمانية عاجزة عن الدفاع عليها .

الهوامش

- 1 الطاهر أحمد الزاوي, ليبيا مند الفتح العربي إلي نهاية الحكم التركي, دار الفتح, طرابلس 1968 م, ص25.
- 2 :محمود ناجي, تاريخ طرابلس العرب ,تعريب عبد السلام أدهم, منشورات الجامعة الليبية ,كلية الاداب دت ,ص99.
- 3:المرجع السابق, والصفحة.
- 4 :عبد العزيز طريح شرف, جغرافية ليبيا, الإسكندرية, دار الجامعات, 1960 م, ص
- 5 :شوقي الجمل, المغرب العربي الكبير, تونس, دت, ص125.
- 6 :بروشين, تاريخ ليبيا الحديث, تعريب عماد غانم, مركز جهاد الليبيين لدراسات التاريخية, 1991 م, ص53 .
- 7:إتوري روسي, ليبيا مند الفتح العربي إلى 1911 م, تعريب خليفة التليسي, الدار العربية للكتاب, 1991 م, ص
- 8 : بروشين, المرجع السابق, ص34 .
- 9:المرجع السابق, ص77.
- 10 :محمد خليل بن غلبون, التنكار من ملك طرابلس ومابها من أخبار, تعليق الطاهر أحمد الزاوي, مطبعة الأنوار, 1967, ص115 .
- 11:بروشين, المرجع السابق, ص71
12. بن غلبون, المصدر السابق, ص150 .
- 13: بروشين, المرجع السابق, ص87 .
- 14:بن غلبون, المصدر السابق, ص151 .
- 15 أبوا لقاسم إبراهيم, المهاجرون الليبيون إلى الإيالة التونسية1616م /1818 م, مركز جهاد الليبيين لدراسات التاريخية, 1996 م, ص31 .
- 16: بروشين, المرجع السابق, ص81. 70 .
- 17:عمر علي إسماعيل, التطور السياسي والاجتماعي في ليبيا1835 م إلى 1880 م, رسالة دكتورا غير منشورة, جامعة عين شمس, القاهر, كلية الاداب, 1977 م, ص16.
- 18 : عمر علي إسماعيل, انهيار الأسرة القرمانلية, المرجع السابق, ص15 .
- 19:فرنشيسكو كورو, ليبيا في العهد العثماني الثاني, تعريب خليفة التليسي, دار الثقافة بيروت, دت, ص71 .

19؛ أحمد النائب، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، مكتبة الفرجاني، طرابلس، 1972م، ص 315 .

20المصدر السابق، ص108.

21 : أبو القاسم إبراهيم، المرجع السابق، ص32 .

22 : عمر علي إسماعيل، المرجع السابق، ص ص 108 و 109 .

23 :المرجع السابق، ص 111،

24 : أحمد النائب، المصدر السابق، ص 343 .

25 : سامح عزيز، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، تعريب عبد السلام أدهم، بيروت لبنان، 1969 م، ص 17.

26: بروشين، المرجع السابق، ص 166 .

27 :محمد أحمد الطوير،مقاومة الشيخ غومة المحمودي للحكم العثماني في إيالة طرابلس الغرب1835/ 1858 م،مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخي، 1988 م، ص81 .

28: الطاهر أحمد الزاوي،المرجع السابق ، ص233 .

29: محمد أحمد الطوير، المرجع السابق، ص 83 .

30:بروشين،المرجع السابق، ص266 .

31: محمد أحمد الطوير، المرجع السابق، ص83 .

32 : عمر علي إسماعيل،المرجع السابق، ص129 .

33:محمد أحمد الطوير،المرجع السابق، ص85 .

34: محمد بهيج الدين،تاريخ بن غلبون،دار بيان طرابلس غرب جريدة حوادث سنة 1248 هـ، ص ص 129-131 .

35:محمد أحمد الطوير، المجتمع الليبي 1835- 1950 م،أعمال الندوة الثامنة، بمركز جهاد الليبيين لدراسات التاريخية، 2005، ص 510 .

36: حسن الفقيه حسن، اليوميات الليبية، رقم 3060 'بتاريخ 14 شعبان 1254.

37: المصدر السابق نفسه .

38 : عمر علي إسماعيل، التطور السياسي والاجتماعي في ليبيا، المرجع السابق، ص 133 .

39 :بروشين، المرجع السابق، ص281 .

- 40: المرجع السابق, ص282.
- 41: عمر علي إسماعيل, المرجع السابق, ص 142 .
- 42: المرجع السابق, ص 143.
- 43: المرجع السابق, ص144.
- 44: محمد الأزهرى, مذكرات يوميه مخطوطه ,د-ت, ص 9 .
- 45: أحمد النائب, المصدر السابق, ص392 .
- 46: عمر علي إسماعيل, المرجع السابق, ص152.
- 47: محمد أحمد الطوير, ثورة غومة المحمودى, المرجع السابق, ص224.
- 48: محمد الأزهرى, المصدر السابق, ص8.
- 49: محمد أحمد الطوير, المرجع السابق, ص225 .
- 50: عمر علي إسماعيل, المرجع السابق, ص154 .
- 51: المرجع السابق, ص151
- 52: محمد أحمد الطوير, المرجع السابق, ص240 .
- 53: أحمد النائب, المصدر السابق, ص362.
- 54: عمر علي إسماعيل, المرجع السابق, ص161
- 55: محمد الأزهرى, المصدر السابق, ص13.
- 56: محمد أحمد الطوير, المرجع السابق, ص295.
- 57 المرجع السابق, ص198.
- 58: أتوري أروسي, المرجع السابق, ص275.
- 59: محمود ناجي, المرجع السابق, ص21.
- 60: عمر علي إسماعيل, انهيار الأسرة القرمانيّة, المرجع السابق, ص221.
- 61: عمر علي إسماعيل, التطور السياسي والاجتماعي في ليبيا, المرجع السابق, ص287.
- 62: أحمد عزت عبد الكريم, دراسات في تاريخ المغرب الحديث, دار النهضة العربية, بيروت, 1970 م, صص 147 ,

63: المرجع السابق, ص 365.